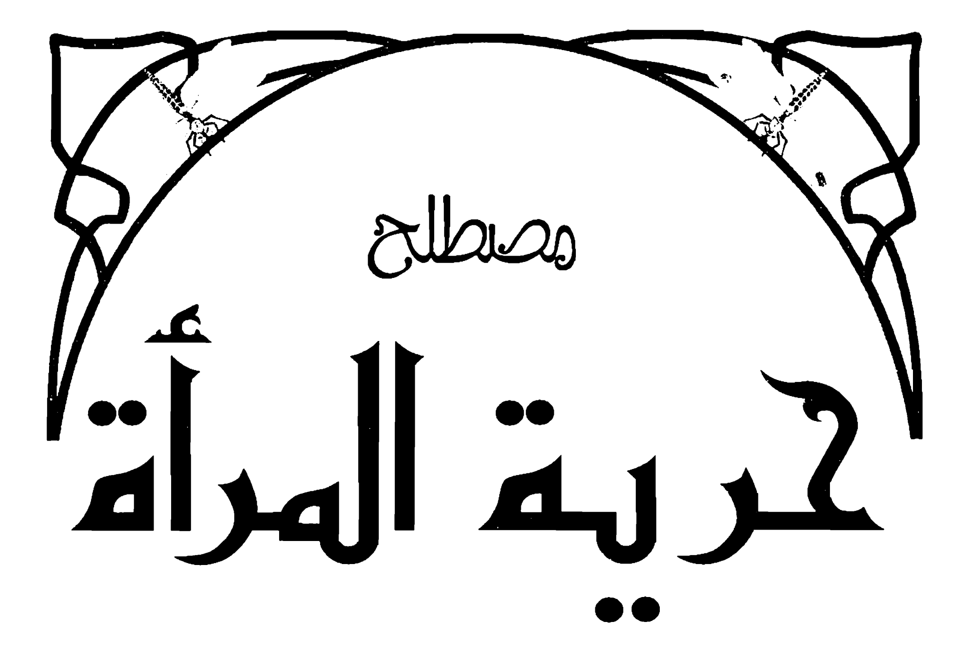
مصطلح

حرية المرأة



بين كتابات الإسلاميين و تطبيقات الغربيين

محمد بن موسى الشريف



مصطلح حرية المرأة

بين كتابات الإسلاميين وتطبيقات الغربيين

د. محمد موسى الشريف

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/١٤٤٠٠

دار التـــوزيع والنـــشر

ش. ذ. م. م.

مصـــــــر - القاهــــرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورســعيــد ت: ٢٣٩١٢٧٤٠ - فــاكس: ٢٣٩١٧٩٥٦

مكتــبة السيــدة: ٨ ميـدان السيــدة زينب ت: ٢٣٩١٧٩٥٠

www.eldaawabookshop.com

Email:d.eltwzea@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

لم يتعرض معنى من المعانى -فيما أظن وأقدر- إلى العسف والانتهازية وسوء الاستعمال مثلما تعرض له معنى الحرية العامة، وحرية المرأة خاصة، فقد اتخذ ذريعة للوصول إلى مفاسد كثيرة، وصار حجة لأعمال وأقوال وأحوال يندى لها جبين الفضيلة، خاصة فى هذا العصر الذى تميع فيه كثير من المصطلحات والمعانى، وفسد كثير من التصورات والمبانى، وساعد على كل ذلك وجود قوى عالمية تناصر تلك الحرية المزعومة، وتريد فرضها على العالم بقوة الحديد والنار، والتسفيه والترهيب!! واعجب لحرية تفرض بالترهيب!! وأسهم فى تردى الأمر ما عليه الأمة الإسلامية من تراجع حضارى مادى، وترك لمنهج الله تعالى وهو المنهج الوحيد القائم فى الأرض الذى يفسر الحرية عامة، وحرية المرأة خاصة تفسيرًا صحيحًا قائمًا على منظومة كاملة من الوعى والفهم للإنسان والحياة، وحسن التصور للعلاقة ما بين هذه الحياة والحياة الآخرة ومتطلبات كل منهما، وهذا الفهم الصحيح والتصور المريح قد فُقد فى الأرض ولم يعد يعرفه ولا يملكه إلا المسلمون بإسعاف منهجهم الربانى لهم،

ومساعدة ما حُشِد لهم من تصورات صحيحة إيمانية فى كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

والمسلمون فى ظل صحوتهم الراشدة -التى ابتدأت قبل ثلاثين سنة تقريبًا- يحاولون الرجوع إلى هذا المنهج الراشد فى كل شئون دينهم ودنياهم؛ ليصلحوا به حالهم، وينعتقوا به من إسار الذل والهوان، الذى تخبطوا فيه فى القرون الأربعة الأخيرة: قرون الظلم والظلام، وكثر الجدل والنقاش حول مفاهيم كثيرة كان منها مفهوم الحرية، وحرية المرأة خاصة، الذى نال قسطًا وافرًا من الحديث ومن ثم التأليف، الذى تنوعت فيه الاتجاهات، وكثرت فيه الاجتهادات، وفى هذا الوقت الذى نعيشه اشتدت فورة الحركات النسائية الداعية إلى الحرية، وعقدت لها مؤتمرات متتابعة فى بكين والقاهرة وغيرهما، وحشدت لها قوى، وجاءت بمفاهيم جديدة عن الحرية فى غاية الخطورة، وتجاوزت بذلك كل طروحاتها السابقة على وجه فاحش، ولما كان كل ذلك، واجتمع فى الساحة دعاة الشر برز لهم دعاة الخير والصلاح والفضيلة، وناوشوهم، وأسكتوهم مرارًا -على أن الباطل منتفش أحمق لا يكاد يكف عن باطله- وصارت هناك مواجهات متعددة فى المجامع والمحافل، وبرزت كتابات جديدة كانت أحسن تناولاً لما يجرى فى الساحة وأفضل مواجهة لقوى الشر، وأقوى استدلالاً، وأتى الله تعالى على يديها بخير كثير.

وقد رأيت أن أسطر بحثًا أُعَرِّج فيه على تلك الكتابات بإيجاز لأبين ما قد يعترى بعضها من ضعف فى تقرير المسائل، أو تنافر فى الاجتهاد بسبب إرادة

كاتبيها تذليل مـا يظنون أنه عقبة أو شبهة فى المفاهيم الإسـلامية، وكتبت هذا البحث أيضًا لأضع بعض الضوابط والقواعـد فى قضية تحرير المرأة، ولأوضح بعض المآخذ على طروحات من ينادى بقضية التحرير مبينًا المنهج الإسلامى فى هذه المسألة، ولا أزعم أن هذا وذاك قد غـاب عن كتابات المصلحين أو نظرات المحللين المجـتهـدين لكن حاولت الجـمع والإيجاز، وأتيت بما أظن أنه مـهم لأهل الصحوة أن يفهموه على وجـه موجز جامع؛ وذلك أن الإيجاز هو سمة العصر، وما عـاد أهله يستطيعون -فى أكثرهم- قراءة المبـسوطات الواسعات، وإنما البحـوث الموجزات، فلهذا حـرصت على الإيجاز وذكـر أهم النقاط فى قضية حرية المرأة.

ولم أعرج فى حـديث منفصل مبوب على بيـان منهج الإسلام العظيم فى تحرير المرأة تحريرًا حقيقيًا لسببين:

أولاً: لأننى أظن أننى قد أتيت على عـدد من القواعد الإسلامـية فى منهج التعـامل مع المرأة فى ثنايا البـحث، وهى كافيـة بالنظر إلى وجـازة البحث، وسعة الموضوع المطروق.

ثانيًـا: لأننى أرى أن المنهج الإلهى فى هذا الـباب أعظم من أن يدلل عليـه بإيجاز كـهذا، وقد تكلفت كـتابات كثـيرة ببيانه على وجـه مستـفيض، وإنما حسبى أن أوضح ما قد يعترى بعض تلك الكتابات من خطأ، وأن أضع بعض القواعد، ثـم أعرج على المآخذ الكبيـرة التى تؤخذ على الغربيين فى فـهمهم لمسـألة حـرية المرأة، وإنما ذكـرت حال أهل الـغرب دون الشـرق -كـالصين

واليابان- لأن الغــربيين هم الذين يحاولون فرض مــفهومــهم على العالم دون الشرقــيين، ولأن كثيــرًا من شعــوب الشرق ليس لهم مفــهوم مــحدد فى هذا أصلاً، أو أنه لم يصل شره ووباله إلينا، والله تعالى أسأل التوفيق للصواب فى القول والإخلاص فى العمل.

كتبه

محمد بن موسى الشريف

البريد الإلكترونى: **mmalshareef@yahoo.com**

الموقع على الشبكة: **www.altaraeekh.com**

المبحث الأول:
ضوابط وقواعد فى مسألة تحرير المرأة

هناك ضوابط ضابطة، وقواعدها هادية لابد من الاسترشاد بها والأخذ فى تناول قضية المرأة المثارة الآن، وذلك حتى لا نشتط فى الدفاع، ولا نسترسل فى الهجوم، ومن أجل سلوك المسلك الوسط الذى هو سمة هذا الدين وشعاره ودثاره، وإنما سقت هذه الضوابط لأن هذه المسألة قد كثر فيها الأخذ والرد، وتلاعب بها المفرطون، وفهمها على غير وجهها الغالون، واشتط فيها أقوام مغرضون، ولاكوا هذه الكلمة طويلاً، ورددوها حتى مللناها ومللناهم، بعد أن عرفنا خطورة مسلكهم ودعاواهم، فمن تلك الضوابط:

١- المنهج الإلهى فى مسألة تحرير المرأة يضمن لها الحرية المطلوبة المنضبطة:

إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بما يصلح لهم وينصلحون به، فقد قال تعالى: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤].

وأنزل جل جلاله قرآنًا حاكمًا على الناس، وضابطًا لتصوراتهم، وهاديًا لهم فى الظلمات، ومنبهًا لهم من الوقوع فى الحبائل والشهوات، وعاصمًا لهم من الزيغ والضلال والانحرافات، وقرن ذلك الوحى الحكيم المجمل بالسنة النبوية الكريمة التى أكملت ما جاء به القرآن العظيم، وبينت ما أجمل، وأطنبت فيما أشار إليه وأوجز، وفصلت تفصيلاً، ولم تترك أمرًا يفيد الناس

في دنياهم وأخراهم إلا دلتهم عليه، وحذرت من كل ما يريدهم ويضلهم. فبهذا اكتمل لنا الدين وارتضاه لنا إلهنا رب العالمين، فقال جل من قائل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، فالدين قد اكتمل، والرضا به قد حصل، والنعمة قد تمت.. فماذا بعد هذا؟ وما الذى يبقى إلا أن نعض على ديننا بالنواجذ، ونحسن الأخذ به وتطبيقه فى حياتنا وكل شؤوننا حتى نرتقى إلى سُدة السيادة من جديد، ونقود العالم إلى الخير والهدى والرشاد السديد.

ومن ذلك الذى ينبغى الأخذ به والاهتمام بشأنه هو منهج الإسلام فى صيانة المرأة، وأنه المنهج الأمثل بل ليس هناك منهج غيره يضمن لها الحرية المنضبطة التى لا تعود عليها بخسارة دنياها وأخراها، وأنها مهما أخذت بذلك المنهج واستمسكت فهى على خير وإلى خير، فالإسلام يأمرها بأشياء ويمنعها من أشياء ويخيرها فى أشياء، فما أمرها به من فرائض وواجبات فليس لها الخيار فى ذلك إلا أن تتمثل وترضى، وما منعها منه فسبيلها أن تتمنع وتأبى؛ وما خيَّرها فيه فلها أن تختار منه ما يسعدها فلا تشقى، هذه هى العبودية الصحيحة الضامنة لكل خير، أما الاستعصاء والإباء، والانفلات والاستعلاء، والنظر إلى تلك التشريعات على أنها مقيدات آسرات فهو البلاء كل البلاء.

وهؤلاء نساء الصحابة والتابعين والسلف الصالحين، والخلف المتابعين قد عشن فى سعادة وهناء، فلم يعكر صفوهن مروق من الشرع أو فرار من المنهج الإلهى، نعم قد حصل لبعضهن ظلم واضطهاد على مر العصور لكن هذا لم يكن أصلاً يُحتكم إليه، ولا يعول عليه، ولا يرجع إليه بل ظل مستهجنًا

مسترذلاً، وظل المنهج الإسلامى واضحًا كل الوضوح يرجع إليه أولو الألباب والعقول الراجحة.

قال الأستاذ/ مثنى الكردستانى[1]:

«ليس ما تراه حقًا لنفسها هو حق لها بالضرورة، وكذلك الرجل فليس له أن يقرر حقوقه ويتوسع فيها على حساب المرأة بهوى أو تحيز دون الوقوف على محكمات الدين وآياته البينات... فهناك الخالق العظيم الذى لا يحابى ذكرًا ولا أنثى، ولا يجاهل أحدًا فى الحق، هو الذى يبين للجميع حدودهم وحقوقهم وواجباتهم فى المقدار المتعلق بالثوابت والقطعيات، أما دون ذلك من الاجتهادات التى هى تفسيرات بشرية تخضع للتمحيص فلا عصمة لأحد دون رسول الله ﷺ.

وفى سورة الأحزاب -إحدى السور الخاصة بأحكام المرأة المسلمة- يؤكد القرآن بعد بيان أحكام الحجاب لنساء النبى ﷺ وبعد الآية ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [الأحزاب: ٣٥] أنه ليس هناك للمؤمن خيار بعد اختيار الله ورسوله له أمرًا وحكمًا ويقول: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ويلاحظ أيضًا أن القرآن الكريم كثيرًا ما يستخدم مصطلح «حدود الله» عندما يتحدث عن القضايا المتعلقة بالمرأة والأسرة تأكيدًا على خطورة هذه

---

(١) باحث فى مجال العقيدة والفلسفة.

القضايا، تنبيهًا على خطورة الأحكام المتعلقة بها، وأنه لا يجوز الإخلال بها أو حتى التقصير فيها لأنها حقوق وحدود مرسومة من الله ويؤدى إهمالها لنتائج وخيمة وخطيرة. . .

وهكذا فصل القرآن الكريم أحكام المرأة وحقوقها، وبيَّن حدود الرجل وحقوقه، وفى هذا ضمان لحقوق المرأة، وتقييد أيما تقييد لسلطة الرجل وحدٌ من تَغَوّله على المرأة. . .

إذا كانت العلمانية تعنى تقديم العقل البشرى على النص الإلهى وفصل الدين عن الحياة، فإن الإسلام لا يمكن أن يُعلمن مهما حاول المبطلون، وأن القرآن نزل تبيانًا لكل شىء، ولا فصل فى ديننا بين العقيدة والعبادة والشريعة، وإنها هى حلقات متصلة متداخلة، ولا نزاع عندنا بين العقل والنص، لأن النص الصريح يستحيل أن يتناقض مع العقل الصحيح. . »(١).

وتلخيصًا لهذا كله أورد هذا النص الثمين:

«إن الأحكام لا تجد دائمًا مسوغات فى الواقع، وبالتالى فالترجيح بموجب عدل الله تعالى وحكمته أقوى وأدل، وإلا فهناك بوادر مغرضة داعية إلى الاجتهاد مع النص للتوفيق بين التشريع والواقع، كما يزعم العلمانيون. . . حيث يصبح الواقع محددًا للحكم متجاوزًا قطعية النص الذى جاء فيه»(٢).

---

(١) «الحركة الأنثوية»: ٢٨٣ - ٢٨٦.

(٢) «عن التحرير الإسلامى للمرأة»: ضمن مجموع تحرير المرأة: ٤٣٥ والكلام للأستاذة بسيمة الحقاوى تعقيبًا.

٢- النموذج الغربى فى مسألة تحرير المرأة مرفوض تمامًا:

إن الغرب أصبح بمعـزلٍ عن الدين منذ أمد بعيد، ودينه وإن كان فـيه قدر غير يسير من التخريف والتـحريف إلا أنه كان حاجزًا بين القوم وبين الانفلات الكامل فى التصورات والمثل والقيم والتصـرفات كما هو حاصل الآن، وانطلق القوم من عقالهم يعبـون من الشهوات عبًا، فى بهيميـة لم يسبق لها مثيل فى الأمم والشـعوب على مـدار التاريخ، وانبـثق لهم من وراء ذلك كله أسلوب حياة رأوا أنه الأمثل والأحسن والأجدر بالاتبـاع، ولو تراضوا على ذلك فيما بينهم وارتضوه لكان الخطب هينًا علينا بعض الشىء، لكن المصيـبة كل المصيبة أن القوم صاروا يزعـمون أن هذا الذى يرونه وأطبقوا على استـحسانه ومن ثم سلكوه هو الذى ينبـغى على الشعوب والأمم اتبـاعهم فيـه، وأن كل ما على الأرض ليس بشىء وليس على شىء حـتى يتبعـهم فيـما ذهبوا إليـه وتراضوا عليه، بل أصـبحـوا يحاكمـون غيرهم إن رأوا أنهم على بـاطل ولم يرتضوا سلوك القـوم ومثلهـم، ومن المضحك المبكى أنـهم صاروا يهـددون شعـوب الأرض وأممها التى لا تستحسن منهـجهم ولا تسلك طرائقهم بالويل والثبور، وربما تعدى الأمر إلى غزوها برًا وبحرًا وجوًا بـدعوى ترويضها وإجبارها على قبول ما قبلوا وسلوك ما رأوا واستحسنوا.

ومن تلك التصورات والقيم والمثل العـجيبة والتصرفات الغريبـة ماذهبوا إليه فى مسـألة تحرير المرأة، فـإنهم قد انقلبت فيـها فطرهم، وارتكست أخـلاقهم، وأسِنَتْ تصرفاتهم، وساءت مثلهم، وانتكست تصـوراتهم وانطلقوا فيها من كل عقـال ضابط، ووحـى هادٍ، وخلق حسن، حـتى صارت المرأة عندهم سلـعة

تعرض، وشهوة تُنال، وزينة تستحسن مِن كل مَن هب ودب، وليت الناظر إلى حالهـا عندهم يرتد إليه طرفه راضيًـا عن شيء، أو مستحـسنًا لحال، وإنما يرتد إليه طرفه مستفظعًا حال القوم، مستغربًا ما تواضعوا عليه، وما ذهبوا إليه.

لكن الغـرب لما صار قوة مـادية في العصـر الحديث، أنشـأ ساسـته فـقه استخراب الشعوب وغزوها علوًا في الأرض واستكبارًا، وتعاظموا في أنفسهم وعلو علوًا كبـيرًا، وامتلكوا زمـام الأمم والشعوب، واسـتولوا على الهيـئات العالمية ومراكز القرار، وأنشأوا الآلاف من مراكز الفكر والأبحاث التي تُعنى بما عنوا، وتقـرر مـا قـرروا، وتذهب إلى مـا ذهبـوا إليـه، وتقنن مـا ارتضـوه وتواضعـوا عليه، لما حصل كل ذلك وفرح القـوم بما هنالك ابتليت بهم الأمم والشعوب، حـيث أرادوا فرض ما رأوه حسنًا وظنوه أمرًا فاضـلاً على غيرهم من الناس، فـصاروا ينادون بأن مـا آلوا إليه وسـاروا عليه في شـأن المرأة هو الصورة المثلى التي ينبغي أن تحـاكم الصور إليها وتقاس بهـا، وأخذوا يقوِّمون الأمم والشعوب بمقدار ما تأخذ من مثلهم وتقتـدي بتصرفاتهم، وتسير سيرهم وتسلك طريقهم، فكل شعب كان أقرب إلى الأخذ بما عليه القوم فهو الشعب المرضي عنه، المفضلة طريقته، الممجد الحميد، وكل شعب رفض ما عليه القوم من بهـيميـة في شأن المرأة فـهو الشـعب الضال الجـاهل الذي يجب أن يُعلم وينبغي أن يُسدد ويُقوم.

لكن الله تعـالى من رحـمتـه صانـنا -أمة الإسـلام- في مـجمـوعنا عن الارتكاس في حمـأتهم بسبب ما منَّ به علينا من شريعـة هادية ووحي ضابط لكل شـؤوننا ومنها قـضـية المرأة، وكـانت المرأة قـد عاشت قـرونًا مصـونة

محفوظة، عزيزة كريمة، وإن عكّر على ذلك حينًا أننا قد نأخذ طرفًا من التقاليد التى تقلدناها ونخلطها بالتصور الإسلامى لكن هذا ليس موضوع البحث الآن، وإنما أنظر إلى أصل المنهج وحسن التطبيق فى المجموع والعموم، لكن لما ضعف تأثير الدين فى النفوس بفعل عوامل كثيرة منها تضييعنا نحن بأنفسنا كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، ومنها حيدتنا الإرادية عن منهج الله تعالى فى الأرض، ومنها تسلط الاستخراب العالمى علينا وغير ذلك من العوامل، لما ضعف تأثير الدين فى النفوس صار كثير منها عرضة لرياح الغرب العاتية وتصوراته الخطيرة البالية، فى شتى مناحى الحياة عمومًا، وقضية المرأة خصوصًا، بل أراد بعضهم تبنى ما ذهب إليه الغرب فى بعض توجهاته أو كلها، وصار لهم لسانًا ناطقًا، وعنهم مدافعًا، وبما هم عليه راغبًا، ولسلوكهم مستحسنًا، ومن ثم نادى بوجوب إصلاح ما عندنا من قيم ومثل فى قضية المرأة، ووجوب الاقتباس من الغرب فى هذا الباب، وأخذ يلبس ما عليه القوم لباس القبول، ويغض الطرف عما عندهم من محيرات العقول.

والذى ينبغى أن يعرف فى هذا أن القوم ليسوا على شىء، وأن تصوراتهم هذه بشأن المرأة مبنية على استحسان عقلى محض خالطه مرضا الشهوات والشبهات، وأننا ينبغى لنا فى هذه الظلمات المدلهمة أن نستمسك بما يريده منا ديننا، وشرعه لنا ربنا العظيم ورسوله الكريم ﷺ، وحسبنا فى رفض النموذج الغربى فى مسألة تحرير المرأة ما آل إليه القوم بسبب منهجهم ذلك، وما هم فيه من المخاطر والمهالك، والسعيد من اتعظ بغيره، لا من وُعظ به غيره، وحسبنا فى رفضنا ذلك النموذج أيضًا ما آل إليه حال النساء فى أوطاننا العربية

والإسلامية اللواتى سلكن مسلك القوم وارتضينه حتى صارت حالهن عبرة للمعتبر، ورادعًا للمفتون المنبهر.

إن هذا المنهج الغربى فى تحرير المرأة لابد من إدانته، وإظهار عوراته للشعوب وسوأته، لا أن ينادى بالأخذ به وتطبيقه.

قال الأستاذ محمد عمارة:

«إننا نلح منذ سنوات طوال، وقبلنا ومعنا الكثيرون من علماء الإسلام ومفكريه على أن هذا الدين الحنيف إنما يمثل ثورة كبرى لتحرير المرأة لكن الخلاف بيننا وبين الغرب والمتغربين هو حول نموذج هذا التحرير؛ فهم يريدون المرأة ندًا مساويًا للرجل، ونحن مع الإسلام نريد لها مساواة الشقين المتكاملين، لا الندين المتماثلين وذلك لتحرر المرأة مع بقائها أنثى ومع بقاء الرجل رجلاً»(١).

هذا ويمكن أن يكون للغرب شيء من العذر فى انجرافهم الكبير نحو دعاوى الحرية للمرأة وذلك بسبب أن دينهم المحرف قد فرض عليهم تصورات عجيبة بشأن المرأة، فقد كانت هناك قسوة بالغة فى التعامل مع المرأة، واستعبادها واستبعادها، وعدم مشاركتها فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بَلْه السياسية هو الأساس، وظل الأمر كذلك قرونًا حتى قامت الحركات الداعية إلى تحرير المرأة فى القرن الثامن عشر وما بعده، وظلت متواصلة إلى هذا القرن الذى نعيش فيه(٢).

---

(١) «عن التحرير الإسلامى للمرأة»: ٣٩٧.

(٢) انظر للتوسع فى هذا الأمر كتاب «استعباد النساء» للإنجليزى جون ستيوارت، وكتاب «المسيحى والمرأة» للدكتور إمام عبد الفتاح إمام.

وأقول قد يكون للغرب شىء من العذر إزاء هذا لكن ما عذر المسلمين القائلين بهذا الهراء الذى يسمى تحرير المرأة وقد حررها الإسلام من ربقة الجاهلية، وارتقى بها رقيًا لم يكن لمثيلاتها فى الأمم والشعوب مثله إلى يوم الناس هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد قيل إن المراد بالتحرير هو تحريرها من التقاليد والعادات المخالفة للإسلام فنقول: قيدوا إذًا المصطلح بهذا القيد حتى لا يفهم خطأ، وسيأتى شىء من التفصيل حول تشوش مفهوم هذا المصطلح: مصطلح حرية المرأة فى النقطة القادمة.

وخلاصة القول فى هذا الجانب أن النموذج الغربى لا يصلح هاديًا أبدًا، وكيف يفلح من كانت العميان تهديه؟! ولا أجد منطبقًا على هذا النموذج وأهله إلا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقد سماهم الله تعالى متبعين للشهوات فقال سبحانه:

﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً** ﴾ [النساء: ٢٧].

«أفكارهم وطريقتهم فى الحياة تؤدى إلى أن تميلوا ميلاً عظيمًا، وهذه الآيات واردة أصلاً فى سورة النساء الكبرى، وفى سياق بيان أحكام الزواج والمرأة والأسرة المسلمة عمومًا والتى هى قضية «الحركات الأنثوية» وموضوع حديثهم، فهذا الميل العظيم الموجود فى أفكارهم يجعلنا فى غنى عن الدخول فى مناقشة طويلة للرد عليها لأنها واضحة البطلان على الأقل فى مجتمعاتنا

الإسلامية، والتى لازالت على خير كثير فى قضايا الأخلاق والاجتماع والتى تعرف المعروف وتميزه عن المنكر. . . »[1].

٢- شعار تحرير المرأة الذى يرفع فى ديار الإسلام فيه مغالطة وتشوش:

إن الذين ينادون بتحرير المرأة فى ديار الإسلام إنما هم مسوقون بالتصور الغربى لكلمة التحرير مدفوعون بقيمه فى ذلك، قد تشوشت أفهامهم منذ أن استخدموا هذا المصطلح ورفعوه ونادوا به وتنادوا إليه واجتمعوا عليه؛ فالإسلام قد حرر المرأة تمامًا من كل إرث الجاهلية وآصارها وضلالها، وجعل لها مكانة رفيعة جليلة لم تكن أكثر النساء تفاؤلاً لتحلم بعشر معشاره، وسبق العالم كله فى تحرير المرأة وإعتاقها من أسر الجاهلية، فمن ماذا تحرر المرأة اليوم؟! فإذا قيل إن المراد هو تحرير المرأة من التقاليد والعادات الباطلة التى تحكمت فى بعض المجتمعات النسائية قلنا لهم إذًا حرروا وقيدوا ولا تطلقوا هذا الإطلاق الموهم، الذى يصور المرأة فى سجن كبير وأننا سنحررها منه، إن تحرير المرأة مصطلح غربى لا يصلح لنا، ولهذا المصطلح قصة أليمة وسبب باعث لا يمكن أن يغفل عند القوم ولا أن يستهان به لكن رفعه عندنا على هذا النحو، وإطلاقه هذا الإطلاق ليس له مبرر، فهو بضاعة غربية ونتاج بعد القوم عن الله، وتنحيتهم كل ما له صلة بالدين، وضلالهم عن المنهج الحق المبين والدين المرضى الخاتم، ورضاهم بما هم عليه من فساد فى التصورات والسلوك والقيم فى هذا الباب، أما عندنا فيمكن أن يقال: إصلاح شأن المرأة، أو ضبط حال المرأة بضوابط الشريعة، أو أى مصطلح آخر غير هذا المصطلح الغربى الموهم.

(١) «الحركة الأنثوية» ٢٨٢ - ٢٨٣.

يقول الأستاذ الدكتور عبد الله الأشعل[1] فى كلام جليل:

«لابد من الاعتراف بأن فكرة تحرير المرأة مصطلح غريب على الثقافة الإسلامية، وأنه ليس واردًا فى مفرداتها، كما يجب التنبيه بهذه المناسبة إلى أن المفاهيم والمصطلحات لابد أن تستخدم فى سياقاتها الثقافية والاجتماعية الصحيحة، ولا يمكن تطعيم النظم الاجتماعية والثقافية بنفس المصطلحات المستوردة من نظم أخرى بحرفيتها. .»[2].

وقال أيضًا:

«قد يكون من الأوفق أن يفهم تحرير المرأة فى الإطار الإسلامى على أنه العمل على دراسة وضع المرأة من الوجهة الثقافية والتعليمية والاجتماعية والمهنية»[3].

وقال موضحًا:

«إننى أطالب الحركة النسائية العربية بأن تتبنى مفهومًا جديدًا لتحرير المرأة، لأن تحديد المفهوم هو البداية الصحيحة لأى عمل نسائى يتعلق برعاية المرأة»[4].

وقال أيضًا:

«وليس معنى أن فكرة تحرير المرأة وافدة على الثقافة الإسلامية وغريبة عنها أنها تستحق الرفض والاستبعاد ولكنها فكرة يجب النظر إليها من منظور

(١) مساعد وزير الخارجية المصرى للتخطيط السياسى سابقًا وأستاذ القانون والعلاقات الدولية.

(٢) «تحرير المرأة فى المنهجين الإسلامى والغربى»: ضمن مجموع «مؤتمر تحرير المرأة»: ٨٧.

(٣) المصدر السابق: ٩١.

(٤) المصدر السابق: ٩٠.

موضوعى وتقدمى ذلك أن تحرير المرأة لابد أن يفهم على أنه إعانة للمرأة على أن تقوم بدورها[1] المرسوم بكفاءة واقتدار، وتأهيلها لهذا الدور، وتخفيف الأعباء التى تتحملها وتذليل العقبات التى تعترضها، ولكن المفهوم بحاجة إلى تحديد، فقد شاع حتى هذه اللحظة مفهوم خاطئ لتحرير المرأة...»[2].

وقال أيضًا موضحًا لمفهوم المرأة فى الإسلام ومقيدًا لإطلاقه الفوضوى السائد الآن:

«إن تحرير المرأة فى المفهوم الإسلامى ينصرف إلى تأهيل المرأة وتربيتها وتوجيهها ورعايتها وتعليمها وتثقيفها لكى تكون أمًا صالحة، وزوجة وفية، وابنة بارة، وأختًا طيبة وبذلك يتكامل المجتمع الصغير وهو مجتمع الأسرة ليكون نافعًا فى المجتمع الكبير وهو مجتمع الدولة، وهو جزء من المجتمع الإسلامى الكبير»[3].

٤- مناداة الغرب بتحرير المرأة المسلمة نابعة من عداء وفساد تصور:

قد أكثر عدد من الغربيين فى كتابات عديدة من وصم الإسلام بالعداء للمرأة وتقييد حريتها وإظهار أنها مظلومة مستعبدة، وأكثر هذه الكتابات فيها غرض ساقهم إلى مرض، وفيها عداء ظاهر وتعسف واضح وعدم إنصاف، وأخذ للكل بجريرة البعض وعدم تفريق بين المنهج والتطبيق، وهذا لا يستغرب منهم فقد دأبوا على هذا المسلك وارتضوه فى كل كتاباتهم عن الإسلام تقريبًا، وبعض الكتابات قائم على فساد تصور وقياس فاسد على

(١) كلمة «دور» غير عربية والصواب وظيفة أو مهمة وما شابه هذا.
(٢) المصدر السابق: ٩٢.
(٣) المصدر السابق: ٩٢.

أوضاعهم وما ارتضـوه لأنفسهم ناسين أن للمسلمين منهاجًا إلهـيًا، وهم غير مستعدين أبدًا للتفريط فيه أو التنازل عنه مهما أرعد الغرب وأزبد، ومهما هدد وتوعد، ومهما حاول أن يظهر عورات موهومة ونقائص مزعومة، فحسبهم أن يلتفتوا إلى ما آل إليه حالهم، فقد صاروا ضحكة الأمم وموضع توجع العقلاء فى شأن المرأة وحالها عندهم، ولا يسرنا والله أن نصير مثلهم بل يسوؤنا ذلك ويسوء كل عاقل.

وقد أدى هذا العـداء وفساد التصـور إلى محاولة الغرب التـأثير على بلاد الإسلام وأنظمتها المتعلقة بالمرأة، وضغطوا فى ذلك ضغوطًا ثقيلة ودخلوا علينا من أبواب متفرقة، وربطوا المساعدات الإنسـانية والفكرية والمساندات السياسية ونقل التقنيـة بهذه القضية حـتى صارت على نفوسنا أمرًا ممجـوجًا مستـثقلاً، ومرذولاً مستبشعًا مستشنعًا، لكن هذا قدر الضعيف وحال المسكين الذى ضيع كتاب ربه سبحانه وسنة نبيه ﷺ حتى صار يتحكم فيه الأذل والأحقر.

قال الأستاذ عـبد الله الأشعل السياسى المخضـرم والعارف ببواطن الأمور، موضـحًا ما ترتب على هذا التصـور الغربى وإرادة فرضـه على العالم من أثر مستشنع مرذول، ومبينًا أن مبعثه العداء الذى يناصبونه الأمة الإسلامية:

«من الملاحظ أن فكرة تحرير المرأة فى المجتمع الغربى التى ظهرت فى ظروف معينة مدفوعة بدوافع معينة قد أدت إلى أثرين يجب تعقبهما وتحليلهما:

الأثر الأول: هو أن فكرة تحرير المرأة الغـربية قد ألحت عـلى المواثيق الدولية حيث أصبحت فكرة المساواة المطلـقة بين المرأة والرجل فى جميع الأوضاع هى

دستور الحياة الدولية، وصوَّر الغرب تحفظ الدول الإسلامية على فكرة المساواة المطلقة على أنه الخروج على الخط العام وانحراف عنه، ولهذا السبب عمدت الدول الغربية (أى أوروبا والولايات المتحدة) إلى قياس الفارق بين الموقف النمطى الغربى وبين الموقف الإسلامى على أنه قدر التخلف الإسلامى عن الموقف الحضارى، والذى يتعين بسببه الضغط على الدول الإسلامية لتقليل الفجوة بين الموقفين.

وقد شهدت الساحات الدولية ضغوطًا أوروبية كثيفة على الوفود الإسلامية، خاصة بمناسبة انعقاد المؤتمرات أو إبرام الاتفاقيات التى تتصل بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية وبشكل أخص الطفل وحقوق المرأة المسلمة، وأحكام المساواة بين المرأة والرجل حيث تحفظت الدول الإسلامية على كل هذه الاتفاقيات بشكل أو بآخر، إما بتحفظ عام بأن الدولة لن تطبق من أحكام الاتفاقية إلا ما يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، أو أن الدولة لن تطبق الأحكام التى تتعارض مع الشريعة الإسلامية، وقد عمدت بعض الدول الإسلامية إلى إيراد تحفظات تفصيلية على مواد بعينها تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية.

الأثر الثانى: أن هذه الفكرة قد تركت أثرًا غير مباشر على دول العالم الثالث ومنها العالم الإسلامى مما أدى إلى تأثرها فى نظمها وقوانينها بهذا الاتجاه خاصة بفعل الضغوط التى مارسها الغرب على الدول الإسلامية تحت ستار حقوق الإنسان، وهو الشعار الذى رفعته الدول الغربية، وحاولت أن تستخدمه لفرض سياساتها المتعسفة على العالم الإسلامى بل إن هذه الدول قد

حاولت أن تضـمن قرارات المؤتمرات الدولية الخاصـة بالسكان والتنمية وغـيرها نماذج من السلوكيات التى تـتناقض تمامًا مع السلوكيات الإسلامـية والتى وقفت ضدها الدول الإسلاميـة صراحة، ومثال ذلك محاولة إقرار مبـدأ الحرية الجنسية وزواج المثليـات باعتـبارها من حـقوق الإنسـان، وتدخل تحت عنوان الحق فى الزواج، والحق فى الإنجاب أو عـدمه لإعطاء رخصة للإجـهاض، ولا شك أن الدول الغربيـة التى تقدم مـقترحات ومـبادرات تمس بصـورة أو بأخرى النسق القيمى للدولة الإسـلامية تدخل فى ذلك مشروعات نشر الديمقـراطية فى العالم الإسلامى والتى تداولتها الإدارة الأمـريكية منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لأنهـا تعتقد أن الثقافـة الإسلامية ثقافة ديـكتاتورية بطلها الرجل وضحيـتها الأنثى، ولذلك قدمت الخطة الأمريكية التى عرضها كولون باول وزير الخارجية الأمريكى السابق جزءًا أسـاسيًا حول تحـرير المرأة ويقصد بذلك تحـرير المرأة المسلمة من التقـاليد الإسلامية المتصلة بالدين، ومن التقاليد الاجتماعية المتصلة بعلاقاتها بالرجل.

وهذا المفهوم ينظر العالم الإسلامى إليه على أنه عدوان من الغرب واجتراء على قيم المجتمعات الإسلامية.

ويلحظ العـالم الإسـلامى هذا المفهـوم لتـحرير المرأة الذى يـناقض المفهـوم الغربى لتحرير المرأة الغـربية، والذى يعنى -كما ذكرنا- توفيـر ضمانات المساواة الفعلية بين الطرفين، وهو المفهوم الذى يجب أن يستقر فى العالم الإسلامى على أساس أن المساواة مبدأ لا يمكن تجسيـده إلا بعدد من الحقوق والضمانات، ويظل دائمًا مبدأ نظريًا ما لم يتم تجسيـده... وبعبارة أخرى فإن العالم الإسلامى يرى أن فكرة تحرير المرأة... أو فكرة تمكـين المرأة فى الدول الإسلامية... وإشـاعة

مصطلحات جديدة فى اللغة الدولية تشير إلى هذه المعانى هى محاولة للتدخل فى شئون العالم الإسلامى والنيل من قيمه عن طريق التأثير على واحدة من قوائم المجتمع الإسلامى وهى العلاقة بين المرأة والرجل»(١).

٥- إعطاء المرأة المسلمة حقوقها والحفاظ على مكتسباتها الإسلامية هو سبيل تحقيق أمن المجتمع واجتماعه:

إن الله تعالى كرم المرأة ورفع قدرها وبين حقوقها على وجه منضبط تام ليس بعده إلا الالتزام، وكذلك صنع رسوله الأعظم ﷺ، وانتقلت المرأة المسلمة بذلك نقلة حقيقية إلى رحاب واسعة من التكريم والتشريف لم تكن تعرفها من قبل، وتفتحت عيناها على وظيفتها فى الحياة وما ينبغى أن تقوم به لتسعد وتهنأ؛ والحفاظ على كل ذلك وعدم انتقاصها مما نالته من التكريم الإسلامى لهو السبيل القويمة لبقاء المجتمع الإسلامى متماسكًا متراصًا بالضوابط الشرعية، حصنًا حصينًا أمام هجمات الأعداء الذين ما فتئوا يحاولون الولوج إلى العالم الإسلامى من باب رفع الظلم عن المرأة وتحريرها كما يزعمون.

ولما أخذت كثير من الدول الإسلامية فى القرن الفائت بالقوانين الأجنبية؛ والأنظمة الوضعية العلمانية ساء حال أهلها وظهرت عورات ما كان لها أن تظهر فى ظل النظام الإسلامى، وصار هناك عداء مزعوم بين المرأة والرجل فى ديار الإسلام، وتسابق محموم لنيل كعكة المكتسبات وكأنه لا شرع يحكم ولا ضوابط تهدى، ولا منهج يُسيِّر!!!

(١) «تحرير المرأة فى المنهجين الإسلامى والغربى»: ضمن مجموع «مؤتمر تحرير المرأة»: ٨٥- ٨٧.

قال الأستاذ عبد الله الأشعل موضحًا بعض آثار هذا العداء المتصور المزعوم:

«تشير دراسات علم الاجتماع القانونى والقضائى إلى أن تشريعات الأسرة المناهضة للرجل قد أنشأت عداوة بين الزوج والزوجة، ووزعت الخوف فى قلوب الرجال من الزواج وتبعاته، كما دفعت إلى تصرفات صورية، ومحاولات للإفلات من الضوابط القانونية، خاصة فى ظل الأوضاع الاقتصادية الضاغطة والتى تجعل من الصعب تحمل تبعات زواج فاشل، والإرهاق الذى يلحق المتقاضين فى ساحات القضاء، فضلاً عن صور الكيد الذى يمكن أن يمارسه الرجل والمرأة ضد كل منهما سواء بالنسبة لحالات الشقاق أو بالنسبة للتعامل مع الآثار المترتبة على انحلال العلاقة الزوجية.

ولعل ارتفاع سن العنوسة فى مصر إلى درجة مذهلة، وانخفاض معدلات الزواج وضعف حياة الزيجات، والارتفاع المخيف فى معدلات الطلاق خاصة بين الشباب حديثى الزواج يقطع بأن هناك خللاً فى فكرة تحرير المرأة، تضاف إلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة..»[1].

ولا أملك إلا أن أذكر بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

***

(١) المصدر السابق: ٩٢.

المبحث الثانى
مآخذ فى قضية تحرير المرأة بالمفهوم الغربى

هناك مآخذ عديدة، وثغرات كثيرة عقلية منطقية، ومخالفات لمنهج الله تعالى واضحة جلية فى قضية تحرير المرأة بالمفهوم الغربى، يلحظها بوضوح المتابعون لهذه الصيحة المنكرة، وهى مآخذ وثغرات ومخالفات تأتى على هذه القضية من القواعد، وتنسف دعاوى هؤلاء وتبشيرهم المزعج الدائم بهذه القضية التى تفننوا فى الدعوة إليها على وجوه مختلفة ورغبوا فيها، ورهبوا من يناهضها أو يبين عوراتها الكثيرة، وللأسف فإن إخواننا وأخواتنا من بنى جلدتنا وممن يتكلمون بألسنتنا لا يريدون رؤية هذه المخالفات والمآخذ، ويصرون على المضى قدمًا فى دعواهم التغريبية بوجوب الأخذ بالنظرة الغربية لقضية تحرير المرأة مهما اعتورها من عيوب، واكتنفها من مآخذ، وهذا من الهوان العجيب والتخاذل الغريب.

ومن هذه المآخذ:

١- الحرية بالمفهوم الغربى انطلقت من كل عقال دينى أو أخلاقى أو سلوكى:

بدأت دعاوى حرية المرأة فى البلاد الغربية -فى العصر الحديث من أوائل القرن التاسع عشر- بداية متناسبة مع الظلم العظيم الذى وقع على المرأة، خاصة مع عدم وجود منهاج إلهى منضبط عندهم يرجعون إليه ويتحاكمون، وقد تنامى تأثير تلك الدعوات فى هذا العصر مع تأسيس الإعلان العالمى

لحقوق الإنسان سنة ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م[١]، ونشأت الحركة الدولية لحقوق الإنسان بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لتضغط بها أوروبا وأمريكا على العالم كله من أجل استخلاص حقوق مزعومة ومن جملتها حقوق المرأة فى نيل حريتها لكنهم لم يضبطوا تلك الحرية بضابط، ولم يقيدوها بقيد سوى القيود الاجتماعية العامة التى ليست حاكمة على السلوك والخلق الشخصيين إلا بالقدر الذى يصل معه هذا السلوك إلى إزعاج الآخرين أو التعدى الحسى عليهم أما غير ذلك فلا، وقد أدى ذلك كله إلى تفلتات نسوية عجيبة من كل الروابط الدينية والخلقية والسلوكية الحميدة، فصارت تهب جسدها لمن شاءت بزواج أو بدونه، وتعرض مفاتنها كما شاءت، ولها أن تقرر مصير جنينها كما شاءت، وصارت هناك دعاوى بتعدد الأزواج مقابل تعدد الزوجات[٢]، بل عدت بعض النساء الزواج قيداً لا مبرر له، وسمت الإنجاب ووظيفة المرأة فيه بـ(عبودية التناسل)[٣].

وصار هناك دعوات عجيبة للإباحية باسم (الثورة الجنسية) حتى صار فى السويد مثلاً: ٩٥٪ من الناس قد جربوا العلاقات غير الشرعية قبل الزواج[٤]، وظهرت أعداد هائلة من الأمهات غير المتزوجات وأغلبهم فى مرحلة المراهقة[٥]، وظهرت أعداد هائلة من المواليد غير الشرعيين[٦]، وازداد

(١) المرأة المعاصرة بين القهر الاجتماعى والتكريم الإنسانى: للدكتور صلاح عبد العال، ضمن مجموع «تحرير المرأة المسلمة»: ٣٣٦.

(٢) «الحركة الأنثوية وأفكارها»، ضمن مجموع «تحرير المرأة المسلمة»: ٢٣١.

(٣) المصدر السابق: ٢٣٣.

(٤) المصدر السابق: ٢٥٣.

(٥) المصدر السابق: ٢٥٥.

(٦) المصدر السابق: ٢٥٤.

الإجهاض زيادة هائلة، ويقدر عدد الأجنة المقتولين بالإجهاض بأربعين إلى ستين مليون جنين سنويًا[1]، هذا عدا الشذوذ الجنسى بين الذكور والإناث وتورط فيه شخصيات تعد كبيرة عندهم منهم سياسيون، وإعلاميون، ورياضيون، وأساتذة جامعات، ورجال أعمال وفنانون بل فيهم قساوسة فى أعلى المراتب الكنسية[2].

والعجيب أن هناك حركات نسوية تطمح إلى تغيير التركيب اللغوى عندهم ليزيل الفوارق اللغوية بين الذكور والإناث!![3].

وهناك دعوات للاكتفاء بالأم فى الأسرة ولا داعى للرجل!![4].

والمظاهر على تفلت دعاوى الحرية النسائية فى الغرب من كل الروابط والقيم كثيرة جدًا لكنى حرصت على الإيجاز فى بيانها صيانة لمشاعر القراء، وتهوينًا من شأنها وتصغيرًا لها، لكنها تدل ولا شك على أن الحرية عندهم قد تجاوزت ممارساتها كل معقول أو مقبول، وأنها حرية ستؤول بالحضارة الغربية إلى انهيار وشيك، والله تعالى أعلم.

والقوم قد انطلقوا فى سياق حريتهم المزعومة من هوى شخصى، والله تعالى يقول عن أهل الهوى والضلال الذين تسوقهم أهواؤهم إلى الضلال: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(١) المصدر السابق: ٢٦١.
(٢) المصدر السابق: ٢٦٥.
(٣) المصدر السابق: ٢٦٩
(٤) المصدر السابق: ٢٧٦.

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤]

وقال سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ومن المهم أن أذكر أن هذه الحرية التى يمارسونها تضايق عددًا من عقلائهم ومفكريهم، قد صرحوا بهذا مرارًا، وكفى بهذا تذكيرًا لإخواننا المخدوعين وأخواتنا المنساقات إلى مثل هذه الدعاوى الفارغة.

٢- القول بالحرية دعا قائليها إلى مهاجمة حقوق الآخرين الشخصية:

وهذا تناقض عجيب، وخلط غريب ومريب، إذ كيف يدعو هؤلاء المتشدقون بالحريات إلى حجب الحرية عن الآخرين، وإلى تقييد حقهم فى عبادة الله تعالى كما أراد وشرع سبحانه، لكن الشىء إذا جاء من معدنه فلا يستغرب، وهذه هى حقيقة هؤلاء، ومن أظهر الأمور التى يعارضها أولئك هى حجاب المرأة، وذلك بربطهم الحجاب بالتخلف، والتبعية، والعنف ضد المرأة، والقمع والكبت، والإرهاب، وهذا ما عبر عنه أحد الكاتبين بقوله:

«إن صورة الحجاب والنقاب، وأيضًا صورة الزى الشعبى فى خطاب التحديث الغربى أنها أشكال للتخلف والتأخر، حيث بات واضحًا أن الخطاب المتغرب يربط بين حجاب الرأس وحجاب العقل، وكأن الأول مُفْضٍ إلى الثانى، وتلك مغالطة صارخة.

وأهم المشكلات التي تثار في الخطاب العلماني أنه يعتبر الحجاب تخلفًا وبالتالي ينادي بنزع الحجاب لأن سفورها طريق للتقدم، ومن هنا يصبح الحجاب خارج دائرة ممارسة الحرية لأنه تخلف، ولا حرية في ممارسة التخلف!!! . . . ومن هنا تصبح الحداثة اختيارًا فوق الحرية، اختيارًا يفرض علينا أن نتخلى عن الزي الشعبي والحجاب -وبالطبع النقاب- لأنها مظاهر للتأخر»!!!(١).

وأصبح الحجاب ينزع من فوق رؤوس المسلمات في سوريا -في زمن قريب- وفي تونس، وأن الحجاب ممنوع في تركيا في دوائر كثيرة، ومُنع الآن في فرنسا في المدارس، وكل هذا يدل بوضوح على تناقض عجيب ومريب بين ما يتشدق به أولئك من دعوات الحرية والتحرير، وبين ممارسات كثير منهم العملية التي لا تطيق أن ترى حرية تنحو منحنى آخر غير الذي ذهبوا إليه، وهذا عين الظلم والتقييد لحريات الناس، لكن القوم في وادٍ والمثل العليا في وادٍ آخر.

٣- التركيز في الدعوة إلى الحرية على القشور دون اللب والمضمون:

الملحوظ الظاهر في قضية الدعوة إلى حرية المرأة هي تمسكها بالقشور والتركيز عليها دون الحديث عن اللب والمضمون بشكل مناسب متوازن، فالتركيز إنما هو على مظاهر الحياة العامة وما تستلزمه من زينة وملبس واختلاط فاحش لا ضوابط له، وركّزت تلك الدعوات على نيل مطالب مخالفة للأديان والشرائع كافة؛ نحو الإجهاض بدون سبب، والشذوذ الجنسي، والإنجاب بدون زواج إلى آخر تلك القائمة المعروفة المكروهة، والتي

(١) «الحركة الأنثوية وأفكارها»: ٢٥٨.

هى من لوازم التفلت من كل الضوابط والقيم فى الدعوة إلى الحرية الزائفة، أما المضمون الحسن فليس له ذكر فى أدبيات الدعاة إلى هذه الحرية النكْراء؛ فليس هناك حديث عن استقلال للشخصية، ولا لجودة فى الفكر، ولا لاطلاع واسع ثقافى، وليس هناك حديث عن التفكر والتدبر فى شأن الآخرة بحرية، والانعتاق من الموروث الدينى الكنسى الجاهلى المتعصب، وليس هناك حديث عن منح المنكوبين حرياتهم فى فلسطين والعراق والشيشان وكشمير وجنوب الفلبين وتركستان الشرقية الرازحة تحت نير الاحتلال الصينى البغيض، وكثير من المنكوبين من النساء اللواتى فقدن حرياتهن، وفقدن معها أبناءهن وأزواجهن وآباءهن وأحباءهن، وليس هناك حديث عن تحرير الأسرى المظلومين فى سجون العراق وأفغانستان وجوانتناموا ومنهم نساء، وليس هناك حديث عن تحرير الهيئات الدولية، كالأمم المتحدة والبنك الدولى من تسلط الأمريكان عليها تسلطًا أدى إلى استبعاد شعوب كثيرة رجالاً ونساءً، فأين دعاة تحرير المرأة من هذه القضايا النسائية الملحة، ولماذا يركزون على القضايا التافهة ويتركون الأمور الضخمة؟!! لعمر الحق إن هذا الشىء مريب، ولا أستبعد أن أولئك المنادين بحرية المرأة إنما هم موجهون من قوى خفية لا تريد بهذا العالم خيرًا ولا صلاحًا ولا أمانًا، والله أعلم.

٤- هناك تقييد حريات فى الغرب للمصلحة وفى الوقت نفسه يرفضون تقييد حرية المرأة للمصلحة:

وهذا منهم عجيب إذ أنهم يقيدون الحريات فى أمور لا تصل فى تأثيرها ونتائجها إلى عشر معشار ما تصل إليه من نتائج مخيفة الحرية المطلقة للمرأة

وعدم تقييدها بضوابط، فهم يقيدون حرية الإنسان فى أن يدخن فى المركبات العامة والمحلات العامة، ولا يمكن أن يرفع الساكن صوته أو صوت زائريه ليضايق جاره فله آنذاك أن يشكوه إلى الشرطة[١]، «ولا يمكن للإنسان الساكن فى شقة سكنية وتحته شقق سكنية وبيوت أن يأتى بعمال الحدادة والنجارة والبناء ليعملوا فى البيت فى أى وقت يشاء من ليل أو نهار، بل لا يسمح له أن يرفع صوت التليفزيون والمسجل وغير ذلك أكثر من الحد المعقول، فإذا أزعج الناس طلبوا له الشرطة، ولا ينبغى للإنسان أن يقود سيارته وهو سكران أو متعاطى مخدر أو بسرعة فوق المسموح به فى الشارع»[٢].

وهذا التناقض الظاهر فى فعالهم دال على أن القوم متخبطون، تسيرهم أهواؤهم الآنية، ولا ينظرون إلى ما هو مترتب من آثار فاحشة على اتباع تلك الأهواء، وهذا كله بسبب افتقادهم لمنهج إلهى منضبط، يحكم أهواءهم ويلجم شهواتهم بلجام الحق والخير والرشاد، فنعوذ بالله من الخذلان، والهلاك فى أودية الضلال، والحمد لله على نعمة الإسلام التى يريد المتفرنجون والمستغربون أن يحرمونا منها، وأن يقذفوا بنا فى مهالك مما يعانيه القوم هنالك، لكن الدعاة الواعين والعقلاء والمفكرين كانوا لهم بالمرصاد، ولله الحمد.

---

(١) أذكر أنى كنت فى زيارة فى سويسرا لأحد الإخوة فحكى لى -وبيته من خشب- كيف أنه يصلى فى البيت هو وأهله وضيوفه بحذر شديد، ويسجدون برفق كبير حتى لا يؤذوا جيرانهم بزعمهم وأنهم يخفضون أصواتهم إلى حد الهمس أثناء الخروج والدخول حتى لا يزعجوهم، فعجيب حالهم هذا مقارنة بحال المرأة عندهم وإزعاجها من تشاء وإضلالها من تشاء، وفتنتها من تشاء بلا رقيب ولا حسيب!!

(٢) «الحركة الأنثوية وأفكارها»: ٣١٠.

٥- القول بحرية المرأة يفضي إلى العداوة والصراع بين الرجل والمرأة:

والله تعالى خلق الذكر والأنثى كل منهما يكمل الآخر، لا يضاده، ولا يصارعه، ولا يتمنى الإيقاع به وإهانته، والله تعالى جعل من سنته في الحياة أنه «لم يخلق موجودًا كاملاً مستغنيًا عن الموجودات الأخرى، بل جعل الزوجية نظامًا شاملاً: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

لا صراع بين الجنسين في الإسلام لأنهما لا يحددان حقوقهما وواجباتهما بل الخالق هو الذي يبين ذلك، وهو القائل: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ولأنهما ليسا متماثلين تمامًا، ومن قال بالتماثل قال بالمساواة المطلقة والصراع وعدم وجود أدوار[١] محددة للجنسين، لكن الناظر إلى الحركات التحريرية النسائية يجد عجبًا في باب التعادي والتصارع إذ رفعت تلك الحركات شعارات معادية للرجال مثل: (الرجال طبقة معادية) و(الحرب بين الجنسين)، (القتال من أجل عالم بلا رجال) ووصل الحد بهم إلى المناداة باستعمال القوة والعناد مع الرجال، وهناك منظمة أنثوية أمريكية تدعى بـ«حركة تقطيع أوصال الرجال» تنادي باستئصال شأفة الرجال في المجتمع.

وقامت كاتبة أمريكية بتأليف كتاب سمته (العدو) وتعني الرجل، ونشأ عن كل ذلك الدعوة إلى تدمير الأسرة باعتبارها مؤسسة قامعة للمرأة يتصدر فيها الرجل، وهناك دعوة إلى الشذوذ الجنسي النسائي -السحاق- باعتباره شكلاً مناسبًا لتجاوز سيطرة الرجال الأعداء[٢].

---

(١) كذا والمقصود: وظائف ومهام. .

(٢) المصدر السابق: ٢٣٨ - ٢٣٩.

وإن كان للنساء الغربيات شيء من العذر فى هذا الشطط بسبب الويلات التى يقاسينها على يد هذا الرجل من اغتصاب، واعتداء على المحارم، والضرب، والقتل، وممارسة أنواع من القهر والعنف النفسى والجسدى والجنسى عليها، أقول إن كان لهن شيء من العذر فى هذا وهن لا ينطلقن من منهج إلهى قويم ولا يملكنه ولا يعرفنه، فما عذر بعض نسائنا فى تقليدهن فى جوانب مما ينادين به ويطالبن؟!

٦- الربط الخاطئ بين مفهوم الغرب لحرية المرأة وبين المصادقة على مواثيق حقوق الإنسان:

وهذه مسألة خطيرة، حيث عمد الغرب لتسويق مفهوم المرأة عنده إلى أن يُضَمِّنَ مواثيق حقوق الإنسان، هذا المفهوم عن حرية المرأة بحيث إن الذى لا يوافق على فهمه هذا فهو إذًا مناهض لحقوق الإنسان، وفى هذا خبث ظاهر ومكر ماكر، تقول الأستاذة بسيمة الحقاوى:

«لقد كان مبحث المساواة واللامساواة من المواضيع الأساسية فى التداول الفلسفى للظاهرة البشرية وبما تطرح من إشكالات: الحرية والديمقراطية ومفاهيم العدل والإنصاف، ولقد أصبحت المساواة شعار الغرب إلى جانب الحرية والإخوة، كما أن المساواة أصبحت مطلبًا حقوقيًا للإنسان فى توصيات الهيئات الأممية، وكل من ينتمى إلى الضفة الأخرى وكل من لا ينتسب إلى الحضارة الغربية، وكل من لا يمتثل للتوصيات الموجهة يصبح متهمًا بـ«اللامساواة»، وبـ«التمييز» وبالتعسف وهضم الحقوق»[1]، ومجاراة القائلين

(١) تعقيب الأستاذة بسيمة الحقاوى على بحث د. محمد عمارة «عن التحرير الإسلامى للمرأة».

بحقوق الإنسان، ومحاولة القول بأن الإسلام عرف حقوق الإنسان قبل الغرب بأربعة عشر قرنًا هو إشكال آخر فى سياق الدفاع عن حرية المرأة؛ وذلك لأن الغرب كاذب فى دعواه أنه يحترم حقوق الإنسان والشواهد على ذلك تند عن الحصر، فقولنا إن الإسلام عرف حقوق الإنسان قبل الغرب فيه إثبات أن الغرب عرف هذه الحقوق وهذا غير صحيح، هذه والإشكال الآخر يوضحه د. عبد الله الأشعل بقوله:

«الإسلام لم يعرف فكرة حقوق الإنسان؛ لأنها فكرة دفاعية ذات طابع تصحيحى تهدف إلى إصلاح الخلل فى نظام المجتمع الأوروبى، كما أنها فكرة مشبوهة تهدف حقيقة إلى إسباغ الشرعية على السياسات الاستعمارية فى العالم الإسلامى، واستخدام مقاصد وأهداف نبيلة استخدامًا يناقض نشأة هذه المفاهيم ومقاصدها»[1].

***

(١) «تحرير المرأة فى المنهجين الإسلامى والغربى» ضمن مجموع مؤتمر تحرير المرأة: ٨٨.

المبحث الثالث:
تأثر كثير من الكتابات الإسلامية حول المرأة وحريتها بمؤثرات مخلة

الكتابات حول المرأة وحريتها تملأ رفوفًا فى المكتبات، وهى كتابات موفقة فى مجموعها، قد اجتهد أصحابها فى طرحهم -وبعضهم له مكانته فى دنيا الثقافة والفكر والعلم الشرعى- فأصابوا فى أكثر ما طرحوه، وجانبهم التوفيق فى بعض ما قدموه وناقشوه، وهم فى ذلك معذورون لاجتهادهم وحماسهم لكن لا يمنع ذلك من أن يبين شىء مما أخطأوا فيه وتعجلوا فى طرحه، أما ما أصابوا فيه فهو القدر الأكبر والنصيب الأوفر الذى لا يحتاج إلى عرض ولا إلى مزيد تأكيد لوجازة هذا البحث، ولأن المطلوب فى هذه المرحلة الحرجة هو التنبيه على ما يظن أنه تجاوز أو خطأ، ومباركة الصواب، ولئن حصل هذا فهو خير كثير.

ومن هذه المؤثرات المخلة:

١- الحديث عن حرية المرأة فى الإسلام ورد الشبهات حولها يتسم بالدفاع:

وهذه مشكلة يقع فيها كثير من الإسلاميين حيث يدافعون عن الإسلام بحرارة وكأن الإسلام قابل للاتهام من قبل الآخرين الذين ليس لديهم منهج ربانى ولا أصل يرجعون إليه إلهىّ، فكيف يكون هذا؟! وكان ينبغى أن يعرض هؤلاء الكتاب الأفاضل ما فى المنهج الإسلامى من تميز، ويردون على

أصول الشبهات بدون أن يستغرقوا فى الدفاع عن الإسلام على هذا الوجه، والإسلام ليس بحاجة إلى هذا الدفاع الذى قد يؤدى إلى تنازل قليل أو كثير عن ثوابت المنهج الإسلامى الأصيل، وما هكذا كان النبى الأعظم ﷺ وسنته المبينة الواضحة هى عرض ما عنده وعدم التوقف طويلاً أمام شبهات الخصوم وإظهار الإسلام فى موقع المدافع المحاصَر، يقول الأستاذ الدكتور عبد الله الأشعل مشيرًا إلى عورة هذا المنهج وتخلفه عن عظمة ذلك المنهج، وأن مصطلح حرية المرأة كان «مصطلحًا» هجوميًا سيئ القصد، مؤثرًا على العالم الإسلامى دون أن يكون بوسع العالم الإسلامى أن يقدم ردًا أو تعاملاً مع هذا المفهوم سوى بشكل سلبى يغلب عليه طابع الخضوع للآخر، وإثبات الاعتراف بعجزه، كما أنه كان فى أحسن الأحوال موقفًا دفاعيًا اعتذاريًا، وليس موقفًا أصيلاً يعتمد على ما فى الإسلام من أصول ثابتة.

وربما كانت عقدة الفكر الإسلامى فى هذا المجال هى أنه لم يجد فى المجتمعات الإسلامية ما يمكن التباهى به كثيرًا فى مواجهة المجتمعات الغربية التى تضع ميزانًا واحدًا للتفاضل بين المجتمعين، وهو معيار التقدم المادى»[١].

وتذكر الأستاذة بسيمة الحقاوى[٢] أمرًا مهمًا جدًا فى هذا الباب -باب الوقوف موقف الدفاع عن الإسلام- حيث قالت مبينة أثر ضغط الترهيب الفكرى الغربى للمسلمين:

(١) «تحرير المرأة فى المنهجين الإسلامى والغربى» ضمن مجموع «مؤتمر تحرير المرأة»، ص ٨٢ وفى الشق الأول من حديث الأستاذ الدكتور شيء من التعميم لا أوافقه فيه.

(٢) برلمانية مغربية.

«تحت ضغط هذا الإرهاب الفكرى والسياسى يقوم العلماء والمفكرون والمثقفون بدفع التهمة عن الدين وعن الثقافة الإسلامية بتقديم الأدلة الدامغة على عدل الإسلام. . .

وإننا بردنا عن الشبهات نتخذ موقفًا دفاعيًا مستدرجين بمنطق الاستعدائيين، ونكون بذلك قد استعملنا نفس منهج المتهمين ونفس جهازهم المفاهيمى، واعتمدنا نفس معاييرهم، مما يفسد علينا خلاصاتنا واستنتاجاتنا، ويتركنا حبيسى الطرح الغربى ومناولته لموضوع المرأة والرجل.

فلقد شهدنا فى هذا القرن وما سبقه إنتاجًا فكريًا فى هذا الموضوع متأرجحًا بين التراث الفقهى لعصور الانحطاط، الذى يصنف المرأة مع الحيوانات ويجعلها على رأس السفهاء[1]، وبين دفع الشبهات عن الإسلام فى مواجهة المد العلمانى واللادينى، مما أثر على مستوى الاجتهاد الفقهى والإبداع الفقهى والإصلاح الواقعى.

ولقد تنبه العلماء المسلمون إلى أنه لمقاربة موضوع المساواة، فإنه من الأصوب استعمال مفهوم العدل بفلسفته الإسلامية وبعده العقدى، واستمر مع ذلك التأكيد على إشكالات المساواة بمنطق التأكيد.

فالمساواة على وجه الإطلاق غير موجودة لاعتبارات منطقية، والأفضلية حاصلة يشير إليها القرآن والسنة بمحددها «التقوى» وليس الجنس، وهذا المعيار يجب أن يُسَوَّق إلى الآخر انطلاقًا من كون الإسلام برمته دين «العالمية»[2].

(١) فى هذا مبالغة وتعميم، وسيأتى نقاش هذا الأمر فى الفقرات القادمة إن شاء الله.

(٢) تعقيب الأستاذة بسيمة الحقاوى على بحث د. محمد عمارة ضمن مجموع «مؤتمر تحرير المرأة»: ٤٣١.

وقال الأستاذ محمد قطب -رحمه الله تعالى- متحدثًا عن منهج كتابه «شبهات حول الإسلام»[1] فى مقدمة الطبعة الحادية عشرة منه:

«لقد هممت أكثر من مرة أن ألغى هذا الكتاب من قائمة كتبى ولا أعيد طبعه! وإنى لأعلم أن هذا الكتاب بالذات هو أوسع كتبى انتشارًا وأكثرها طباعة. . .

وأنى لأعلم كذلك أن أكثر قراء هذا الكتاب هم من الشباب المسلم المتحمس بالذات، لأنهم يجدون فيه الرد على بعض الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام فى طريقهم. . .

ومع علمى بهذا وذلك فقد هممت أكثر من مرة أن ألغى الكتاب من قائمة كتبى ولا أعيد إصداره!. . .

إن المنهج الذى يسير عليه الكتاب فى صورته الراهنة هو إيراد الشبهة التى يثيرها أعداء الإسلام، ثم الرد عليها بما يبطلها.

وذلك هو المنهج الذى تغير موقفى منه، فأصبحت أجد نفسى اليوم غير موافق عليه؛ ذلك لأنه يعطى الشبهة لونًا من الأهمية لا تستحقه، ولونًا من الشرعية يستوجب منا الاحتفال والاهتمام ثم. . . . كأنما دين الله المنزل فى حاجة إلى جهد منا -نحن البشر- لإثبات أنه برىء من العيوب، وحقيقة أننى حين قمت بتأليف الكتاب على هذا النحو منذ أكثر من عشرين عامًا كنت أستند -بينى وبين نفسى- إلى أن القرآن قد أورد شبهات المسلمين وأهل الكتاب فيما يتعلق بالقرآن والوحى والرسول ﷺ، بل بالذات الإلهية كذلك،

---

(١) «شبهات حول الإسلام»: ٧-٩.

ثم رد عليها بما يبطلها، دون أن يكون الرد قد أعطى لتلك الشبهات اعتبارًا ولا شرعية، ولا أعطى شعورًا بأن الإسلام متهم يقف فى مواقف الدفاع!..

ومع ذلك فإن تجربتى فى حقل الكتابة الإسلامية والدعوة الإسلامية خلال تلك الفترة من الزمان، قد دلتنى على أن الرد على الشبهات ليس هو المنهج الصحيح للدعوة ولا فى الكتابة عن الإسلام.

إن المنهج الصحيح هو عرض حقائق الإسلام ابتداء لتوضيحها للناس، لا ردًا على شبهة ولا إجابة على تساؤل فى نفوسهم نحو صلاحيته أو إمكانية تطبيقه فى العصر الحاضر، وإنما من أجل البيان الواجب على الكتاب والعلماء لكل جيل من أجيال المسلمين، ثم لا بأس -فى أثناء عرض هذه الحقائق- من الوقوف عند بعض النقاط التى يساء فهمها أو يساء تأويلها من قبل الأعداء أو الأصدقاء سواء! وفى مثل هذا الجو فى الحقيقة كانت ترد ردود القرآن على شبهات المشركين وأهل الكتاب!

ثم إن التجربة قد دلتنى على شىء آخر، إن معركة الجدل التى يخوضها الشباب المسلم المتحمس مع أعداء الإسلام، لا تستحق فى الحقيقة ما يبذل فيها من الجهد! إن الكثرة الغالبة من هؤلاء المجادلين لا تجادل بحثًا عن الحقيقة ولا رغبة فى المعركة وإنما فقط لإثارة الشبهات ومحاولة الفتنة.

والرد الحقيقى عليهم ليس هو الدخول فى معركة جدلية معهم، ولو أفحمهم الرد فى لحظتهم.

إنما الرد الحقيقى على خصوم الإسلام هو إخراج نماذج من المسلمين تربت على حقيقة الإسلام، فأصبحت نموذجًا تطبيقيًا واقعيًا لهذه الحقيقة، يراه الناس فيحبونه، ويسعون إلى الإكثار منه وتوسيع بقعته فى واقع الحياة.

هذا هو الذى ينفع الناس فيمكث فى الأرض، وهذا هو مجال الدعوة الحقيقية للإسلام.

٢- التهويل والمبالغة فى تصوير أوضاع المرأة المسلمة الآن:

هناك كتابات كثيرة تبالغ وتهول فى تصوير أوضاع المرأة المسلمة فى الوقت الحالى على وجه ممجوج، والنظر إلى هذا النص يوضح ما أعنيه:

«إن المسلمين انحرفوا عن تعاليم دينهم فى معاملة النساء، وشاعت بينهم روايات مظلمة وأحاديث إما موضوعة أو قريبة من الوضع، انتهت بالمرأة المسلمة إلى الجهل الطامس وإلى العزلة والاستعباد فأعادتها إلى ما يقرب الجاهلية الأولى حتى أصبح تعليم المرأة معصية، وذهابها إلى المسجد محظورًا، ومشاركتها فى شؤون المجتمع وانشغالها بحاضره ومستقبله شيئًا منكرًا عليها. . .»[١].

فالناظر إلى هذا النص يجد الآتى:

أ- التعميم فى سرد أوضاع النساء فلا يعرف القارئ أين كان هذا ومتى، فهل هذا كان سائدًا فى العالم الإسلامى كله أو فى بلد محدد؟ وهل هو الآن حاصل أو أنه أصبح من حكايات الماضى؟!

ب- التهويل والمبالغة فى الألفاظ: «الجهل الطامس، العزلة، الاستعباد، الجاهلية الأولى. . .» ولا أعلم مكانًا فى الأرض الإسلامية الآن يمارس فيه هذا كله ضد المرأة.

(١) «المشاركة العامة للمرأة» ضمن مجموع «مؤتمر تحرير المرأة»: ١٠٢، ١٠٣.

ج- هل يعد تعليم المرأة معصية فى أى دولة إسلامية الآن؟

وإليكم هذا النص العجيب:

«إن تأمل واقع المرأة فى مجتمعات الشرق أو العالم الإسلامى اليوم يبرز عدم تفعيل وهامشية دورها فى كثير من البلدان بل أصبحت المعاناة والقهر والظلم والأمية والجهل هى سمات واقع حياتها...»[1].

فهل بعد هذا هذا التهويل تهويل، وهل هذا هو واقع المرأة اليوم فى العالم الإسلامى؟!!

وهذا النص أيضًا:

«إذا نظرنا إلى عصرنا هذا نجد عندنا آفة غلبت على حياتنا الفكرية... فهناك المقصرون فى حق المرأة الذين ينظرون إليها نظرة استهانة واستعلاء فهى عندهم أحبولة الشيطان، وشبكة إبليس فى الإغواء والإضلال، وناقصة العقل والدين، وهم يعتبرونها مخلوقًا ناقص الأهلية، وهى عند الرجل أمة أو كالأمة... لقد حبسوها فى البيت فلا تخرج لعلم ولا عمل، ولا تساهم فى أى نشاط نافع يخدم مجتمعها مهما يكن نوعه... حتى المساجد منعوها من الذهاب إليها لحضور صلاة أو موعظة...»[2].

ففى هذا النص تعميم ومبالغة واضحة، ولا أعرف مكانًا على الأرض اليوم تُحشد فيه كل هذه المظالم ضد المرأة؟! فإن كان هذا أمرًا قديمًا فلم لا يذكر أن الوضع اليوم خلاف الأمس؟ وإن كان موجودًا اليوم فأين وكيف؟!

(١) «تطور الفكر النسوى»: ضمن مجموع: «مؤتمر تحرير المرأة»: ٢١٣.

(٢) تقديم أ. د يوسف القرضاوى لكتاب الأستاذ عبد الحليم أبو شقة: «تحرير المرأة فى عصر الرسالة»: ٩- ١١.

وإليكم هذا النص أيضًا، وهو الأخير:

«المرأة عندنا ليس لها دور ثقافى ولا سياسى، لا دخل لها فى برامج التربية ولا نظم المجتمع، لا مكان لها فى صحون المساجد ولا ميادين الجهاد.

ذكر اسمها عيب، ورؤية وجهها حرام[١]، وصوتها عورة، وظيفتها الأولى والأخيرة إعداد الطعام والفراش...»[٢]!!!

وهذا النص عجيب أيضًا، إذ لا أعرف مجتمعًا مسلمًا فى الأرض يمنع المرأة من حريتها على هذا النحو، ففى الكلام مبالغة وتعميم وتهويل.

وفى التهويل والتعميم والمبالغة مزلق كبير وهو وصم المجتمعات الإسلامية قاطبة بأنها لم تفهم المنهج الإسلامى حق الفهم فى شأن المرأة، ويمهد أيضًا هذا للعلمانيين وأشباههم الذين يصمون المنهج الإسلامى بأنه لم يطبق إلا فى عهد الراشدين، وفيها أيضًا تأكيد خاطئ على أن المجتمعات الإسلامية قيدت حرية المرأة تمامًا على وجه عجيب معيب، ثم إن هذا الذى يهول به ويبالغ هو على خلاف الحقيقة التى يشاهدها كل مسلم فى بلاده اليوم، نعم هنا نقائص وأخطاء لكن ليس بهذا القدر ولا بهذا الحجم من الانتشار، والله أعلم.

٣- عدم إعذار المخالف:

وهذه قضية عجيبة غريبة؛ إذ دأب المفكرون الإسلاميون فى نقد من لا يعذر المخالف، ولا يقيم وزنًا لرأيه، فكيف يصنع كثير منهم هذا، وإنما أعنى فى مسألة إعذار المخالف قضية المرأة وحريتها، وإليكم بعض النصوص:

---

(١) هذا رأى فقهى معتبر، فلم العيب على من يأخذون به، وسيأتى فى الفقرة القادمة مزيد تفصيل فى هذا.

(٢) «قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة»: ٣٣.

«الآراء الارتجاعية فى موضوع الحجاب موجودة. وخاصة فى الجزيرة العربية والخليج، وكل ما قد قيل هنا عن جواز كشف الوجه نقد فى كتابات فى الجزيرة العربية، ليس بالعودة إلى ستر الوجه فقط وإنما فى أن تتحول المرأة إلى خيمة متنقلة لا يرى منها شىء، لا من قمة رأسها ولا من أخمص قدميها، ولا تشعر بأن هناك إنسانًا يتحرك اللهم إلا إذا تنفست أو أصابتها كحة، فالآراء الارتجاعية موجودة»(١).

وهذا الكلام ينقصه اللباقة واللياقة، وهو فى الوقت نفسه هجوم شديد على من اختارت رأيًا فقهياً اطمأنت إليه والتزمت به.

وهذا أحد المشايخ الكبار المعتبرين وهو أستاذنا الدكتور يوسف القرضاوى يقول:

«يكاد هؤلاء المتشددون يجعلون حياة المرأة سجنًا لا ينفذ إليه بصيص من نور، فخروجها من البيت لا يجوز، وذهابها إلى المسجد لا يشرع، وكلامها مع الرجال -ولو بالأدب والمعروف- لا يسوغ، فوجهها وكفاها عورة، وصوتها وكلامها عورة...»(٢).

ففى هذا الكلام مبالغة وتهويل وتعميم -كما سبق فى النقطة الثانية- وفيه مصادرة لرأى من يرى أن وجه المرأة عورة على وجه لا ينبغى.

(١) كلمة أ. د عز الدين إبراهيم ضمن مجموع «مؤتمر تحرير المرأة فى الإسلام»: ٢١٦.

(٢) مقدمة أ. د يوسف القرضاوى لكتاب أ. عبد الحليم أبو شقة: «تحرير المرأة فى عصر الرسالة»: ١٣.

وكذلك قسا أستاذنا الدكتور محمد الغزالى -رحمه الله تعالى- على الرأى الآخذ بوجوب الحجاب الكامل فقال:

«أما إخفاء الأيدى فى القفازات، وإخفاء الوجوه وراء هذه النُقب، وجعل المرأة شبحًا يمشى فى الطريق معزولاً عن الدنيا فذاك ما لم يأمر به دين»[١]!!!.

وقال أيضًا سامحه الله تعالى:

«كان التيار الإسلامى فى الجزائر متقدمًا، ناضر المستقبل، يوشك أن يغسل الأرض من أدران الاستعمار القديم: الاحتشام حل محل التبرج، والإطار الإسلامى أحكم الالتفاف حول التطور الحضارى، وقاده نحو الحرية والخير وسائر حقوق الإنسان، فإذا صيحات مجنونة تعلو بضرورة النقاب والجلباب والقشور التى يضيع معها اللباب، وكانت النتيجة أن أوجس أولو الألباب خيفة من الإسلام وصحوته، وهم معذورون، وتقهقرت الصحوة الإسلامية عقب تلك الفوضى»[٢]!!

وإن أعجب فقد عجبت من المقدمة والنتيجة، ومن ربط ما جرى فى الجزائر بنقاب المرأة ربطًا عجيبًا كما ترون، سامح الله أستاذنا.

ثم هو لم يعذر المخالف ها هنا، ووصف مطالبته بالنقاب للمرأة سترًا لها بأنه صيحات مجنونة!!

وهذا كله من باب تقييد حرية الرأى المخالف التى نادى الإسلاميون طويلاً بوجوب التحذير منها!!

(١) «قضايا المرأة»: ٧.

(٢) المصدر السابق: ٩.

٤- سوء تأويل بعض النصوص ولي أعناقها:

كثير من هذه الكتابات تذهب بعيدًا في تفسير النصوص للدرجة أنها تغرق في اعتساف تأويلها على وجه عجيب، والذي دعاها إلى هذا التأويل هو إرادة «التنزيه» لأنها تظن أن هذا النص يعيب المسلمين إن فهم على وجه كذا، ويشرفهم إن فهم على وجه آخر، ولو كان هذا الوجه مما يجزم كل من له صلة -ولو متوسطة- بالعربية أنه غير مراد، وأن الشارع لم يرد ذلك الفهم المتعسف أبدًا، ومن الأمثلة التي عجبت لها، ووقفت عندها طويلاً قول أحد الفضلاء في تفسير كلمة وردت في سياق وصية النبي ﷺ بالنساء وهي كلمة (عوان) في قول النبي ﷺ: «**فإنهن عوان عندكم**» حيث قال: «ويكفي أن نعرف أن كلمة (عوان) التي وصف الرسول ﷺ بها النساء في خطبة حجة الوداع، التي تعني في «لسان العرب» -النَصَف والوسط -أي الخيار، وتعني ذات المعنى في موسوعات مصطلحات الفنون، قد أصبحت تعني -في عصر التراجع الحضاري- أن المرأة أسيرة لدى الرجل، وأن النساء أسرى عند الرجال، وأن القوامة هي لون من القهر لأولئك النساء الأسيرات... وهو فهم لمعنى القوامة وعلاقة الزوج بزوجته يمثل انقلابًا جذريًا على إنجازات الإسلام في علاقة الأزواج بالزوجات، انقلاب العادات والتقاليد الجاهلية التي ارتدت تغالب قيم الإسلام في تحرير المرأة ومساواة النساء للرجال»(١).

وهذا التفسير لكلمة (عوان) منه عجيب، وذلك لأنها لا تعني في هذا السياق إلا أنهن أسيرات، لكن ما معنى الأسر هنا؟ وهل له علاقة بالقهر

(١) «عن التحرير الإسلامي للمرأة: النموذج والشبهات»: ٤١٥.

والقوامة المتعسفة التى ذكـرها الأستاذ الفاضل ها هنا، لا، إذ كل ما تدل عليه أن المرأة تبقيها كلمة مع زوجها وهى كلمة الإيجاب فى عقد النكاح، وتذهب بها كلمــة وهى كلمة الطلاق، هذا كل ما تعنيه، ولا تعنى أبـدًا ما ذهب إليه الأستاذ الفاضل من أنها الخيار والوسط، إذ لا مجال لقبول ذلك التفسير لتلك الكلمة فى سياقها الواردة فيه أبدًا.

٥- الإزراء على مفهوم بعض الفقهاء ونصوصهم وتقعيداتهم:

عدد من الكتابات التى تحدثت عن حرية المرأة أزرت بقـسوة على تقعيدات الفقهــاء ونصوصهم وأفهــامهم، وتهكمت بها على وجــه لا يليق، فمن ذلك قول أحد الفضلاء:

«ووجدنا -كذلك فى عصور التقليد والجمود الفقهى- تعريف بعض الفقهاء لعــقد النكاح فـإذا به «عقــد تمليك بضع الزوجــة» وهو انقلاب على المعــانى القــرآنية الســامــية لمصطلحــات «الميــثاق الغليــظ» والمودة، والرحمــة والسكن والسكينة وإفضاء كل طرف إلى الطرف الآخر حتى أصبح كل منهما لباسًا له، هكذا حدث الانقلاب فى عصور التراجع الحضارى لمسيرة أمة الإسلام»[(١)].

ولا أدرى فى سـياق عــجـبى من هذا الاعتــراض مــا هى المشكلة فى هذا التعــريف؟! وهل أنكر الفقــيه أن الزواج يلزم منه المودة، والرحــمة، والسكن والسكينة، وإفضــاء كل طرف إلى الطرف الآخر؟؟ وهل أنكر الفــقيه «الميــثاق الغليظ»؟! وهل يصلح فى سياق التــقعيد والتحديد والتــعريف مزج العواطف بالوقائع؟! وقد يحــدث العقد ولا تحدث المودة والسكن إلا بعــده، وقد يتزوج

(١) «عن التحرير الإسلامى للمرأة»: للدكتور محمد عمارة، ضمن مجموع «مؤتمر تحرير المرأة»: ٤١٥.

الرجل المرأة ولا يكون بينهما أية مودة أو سكن ومع ذلك يستمر الزواج وتتيسر العلاقة، وليس كل البيوت تبنى على الحب، كما هو القول المنسوب للفاروق رضى الله عنه.

فهذا النوع من الكتابات الآنفة الذكر يسىء لنا أكثر بكثير مما ينفعنا، ويشوه شرعنا ولا يشرفه.

٦- الزعم بأن النقاب مقيد لحرية المرأة مانع لها من الحركة الإيجابية:

وهذا زعم غريب، فقد رأينا منقبات قد جُلْن فى الأرض وذَرَعْنها يدافعن عن الإسلام، فى بكين، والقاهرة، وأمريكا، وأوروبا، وهن نساء فُضْليات لم يمنعهن النقاب من الحركة الجيدة الإيجابية الرائعة نصرًا لدين الله تعالى، بل رأينا نساءً يدافعن عن الإسلام فى بعض القنوات الفضائية وهن منقبات، ولم يحل النقاب بينهن وبين الدعوة والتبليغ، ورأينا أيضًا «سيدات أعمال» عملن واجتهدن واتّجرن فلم يعقهن النقاب، وانظر إلى ما سطره بعض الدعاة الأفاضل متوهمًا أن المنقبة محدودة الحركة، وأن كشف الوجه مما تستوجبه حركة العصر وتغير الزمان:

«قد عمت البلوى فى هذا العصر بخروج النساء إلى المدارس والجامعات وأماكن العمل والمستشفيات والأسواق وغيرها، ولم تعد المرأة حبيسة البيت كما كانت من قبل. وهذا كله يحوجها إلى أن تكشف عن وجهها وكفيها لضرورة الحركة والتعامل مع الحياة والأحياء فى الأخذ والعطاء والبيع والشراء والفهم والإفهام»(١).

(١) «النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه»: ٦٨.

ولا أدرى رابطًا بين ما ذكره الأستاذ الفاضل وبين النقاب، فليس النقاب مانعًا من الحركة ولا مقيدًا.

وقال أيضًا:

«إن إلزام المرأة المسلمة -وخصوصًا فى عصرنا- بتغطية وجهها ويديها فيه من الحرج والعسر والتشديد ما فيه، والله تعالى قد نفى عن دينه الحرج والعسر والشدة، وأقامه على السماحة واليسر والتخفيف والرحمة»[1].

ولا أدرى ماذا فى النقاب من عسر وحرج وتشديد؟!!

ومعاذ الله أن يكون النقاب مخالفًا للسماحة واليسر والتخفيف والرحمة.

وقال الأستاذ أيضًا -حفظه الله تعالى- زاعمًا أن كشف الوجه ضرورة لتعامل المرأة مع الناس:

«إن ضرورة تعامل المرأة مع الناس فى أمور معاشها يوجب أن تكون شخصيتها معروفة للمتعاملين معها بائعة أو مشترية، أو موكلة أو وكيلة، أو شاهدة أو مشهودًا لها وعليها. . .»[2].

وهذا لا أعلم بأن أحدًا من الفقهاء قاله، وكيف تعاملت المرأة بنقابها مع الناس منذ قرون، ومازالت تتعامل به مع الناس فى عدد من ديار الإسلام بلا حرج.

وخلاصة هذا أن النقاب لم يكن يومًا -ولن يكون- مانعًا للمرأة من الحركة الإيجابية النافعة، ولا مقيدًا لحريتها.

(١) «النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه»: ٧.

(٢) المصدر السابق: ٤٧.

الخاتمة والتوصيات

ظهر فى هذا البحث جليًا إخفاق الغرب إخفاقًا فاضحًا فى تقعيد القواعد المناسبة فى قضية حرية المرأة، وأن كل المزاعم بأنها قد نالت حريتها قد ذهبت أدراج الرياح، وأنهم أخفقوا فى الوصول إلى الحرية الحقيقية للمرأة التى تؤتى ثمارها على هيئة مكاسب وفوائد دنيوية وأخروية.

أما المكاسب الأخروية فليست من موضوع البحث؛ إذ لا مكاسب لهم فى هذا الباب لكفرهم، وأما المكاسب الدنيوية فلم نجد منها إلا النزر اليسير، وأما استعباد المرأة وربطها بالشهوات، وتصويرها على أنها لذائذ فقط فلا زال قائمًا على قدم وساق، وأما اضطهادها والتمييز بينها وبين الرجال فلازال ظاهرًا، وأما الحديث عن ظلمها وانتقاص حقوقها فحدث عنه ولا حرج، وقد تكفل ببيان كل ذلك أعلام فى كتب كبار مبسوطات موسعات.

وأظن -والله أعلم- أن مهمة علمائنا ومفكرينا فى هذه الأيام ينبغى أن تكون فى إبراز المنهج الإسلامى فى قضية المرأة جليًا واضحًا، والبعد عن الدفاع الذى لا يجدى شيئًا إنما هو التوضيح والبيان، فمن أقبل علينا وعلى منهجنا فمرحبا به، ومن أعرض فنسأل الله له الهداية، وأن من مهمة علمائنا الأكيدة هى بيان عورات منهج الغرب فى هذا الباب، وأنه مليء بالثغرات الفاضحة، والأخطاء الواضحة، وبهذا تكتمل صورة البيان.

وعليهم ألا يبـالغوا فى تصوير حال المرأة المسلمـة فى ديار الإسلام بصورة مزرية منفرة وأن ينظروا النظرة المعتدلة العادلة.

والواجب على ساستنا وقادتنا ألا يستـجيبوا أبدًا لأى ضغط غربى فى هذه المسألة ومثـيلاتها، وأن يرفضوا بشدة الحـديث المغرض فى هذا الباب؛ وذلك لأن الغربيين غير مؤهلين أصلاً لفرض أى تصور علينا قد ثبت إخفاقه فى بناء حياة كريمة للمرأة عندهم، وكيف يفـرض من جعل إلهه الشيطان تصوره على من جعل إلهه الرحمن.

وعلى الله تعالى التكلان فى الهداية والرشاد، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

***

فهرس المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.
- تحرير المرأة فى المنهجين الإسلامى والغـربى: أ. د. عبد الله الأشعل ضمن مجموع «مؤتمر المرأة فى عصر الرسالة». نشر دار القلم. القاهرة - الكويت ١٤٢٤هـ.
- تطور الفكر النسوى فى الشرق والعالم الإسلامى: أ. نجال أبو بكر. ضمن المجموع السابق.
- الحركة الأنثوية وأفكارها: قراءة نقدية إسـلامية: أ. مثنى الكردستانى ضمن المجموع السابق.
- «شبهات حول الإسلام» الأستـاذ محمد قطب. نشر دار الشروق. القاهرة- الطبعة الحادية عشرة.
- عن التحرير الإسلامى للمرأة.. النموذج والشبـهات: أ. د. محمد عمارة ضمن المجموع السابق.
- قضـايا المرأة بين التقـاليد الراكـدة والوافدة: أ. محـمد الغـزالى. نشر دار الشروق. القاهرة- الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ.
- المرأة المعاصـرة بين القهر الاجتـماعى والتكريم الإنسانى: أ.د صلاح عـبد المتعال. ضمن المجموع السابق.

- المشاركة العامة للمرأة فى عهد النبوة وواقع المرأة اليوم: أ.د. سعاد صالح. ضمن المجموع السابق.

- مؤتمر تحرير المرأة فى عصر الرسالة. نشر دار القلم. القاهرة - الكويت ١٤٢٤هـ.

- النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه: أ. د. يوسف القرضاوى. نشر دار وهبة. القاهرة- الطبعة الثانية سنة ١٤٢٠هـ.

***

الفهرس

الموضوع | الصفحة

المقـدمة ٣

المبحث الأول: ضوابط وقواعد فى مسألة تحرير المرأة ٧

١- المنهج الإلهى فى مسألة تحرير المرأة يضمن لها الحرية المطلوبة المنضبطة ٧

٢- النموذج الغربى فى مسألة تحرير المرأة مرفوض تمامًا ١١

٣- شعار تحرير المرأة الذى يرفع فى ديار الإسلام فيه مغالطة وتشوش. ١٦

٤- مناداة الغرب بتحرير المرأة المسلمة نابعة من عداء وفساد تصور. ١٨

٥- إعطاء المرأة المسلمة حقوقها والحفاظ على مكتسباتها الإسلامية هو سبيل تحقيق أمن المجتمع واجتماعه ٢٢

المبحث الثانى: مآخذ فى قضية تحرير المرأة بالمفهوم الغربى ٢٥

١- الحرية بالمفهوم الغربى انطلقت من كل عقال دينى أو أخلاقى أو سلوكى ٢٥

٢- القول بالحرية دعا قائليها إلى مهاجمة حقوق الآخرين الشخصية. ٢٨
٣- التركيز فى الدعوة إلى الحرية على القشور دون اللب والمضمون. ٢٩
٤- هناك تقييد حريات فى الغرب للمصلحة وفى الوقت نفسه يرفضون تقييد حرية المرأة للمصلحة ٣٠
٥- القول بحرية المرأة يفضى إلى العداوة والصراع بين الرجل والمرأة. ٣٢
٦- الربط الخاطئ بين مفهوم الغرب لحرية المرأة وبين المصادقة على مواثيق حقوق الإنسان ٣٣
المبحث الثالث: تأثر كثير من الكتابات الإسلامية حول المرأة وحريتها بمؤثرات مخلة ٣٥
١- الحديث عن حرية المرأة فى الإسلام ورد الشبهات حولها يتسم بالدفاع ٣٥
٢- التهويل والمبالغة فى تصوير أوضاع المرأة المسلمة الآن ٤٠
٣- عدم إعذار المخالف ٤٢
٤- سوء تأويل بعض النصوص ولى أعناقها ٤٥

٥- الإزراء على مفهوم بعض الفقهاء ونصوصهم وتقعيداتهم ٤٦
٦- الزعم بأن النقاب مقيد لحرية المرأة مانع لها من الحركة الإيجابية ٤٧
الخاتمة والتوصيات ٤٩
فهرس المراجع والمصادر ٥١
الفهرس ٥٣

***

دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان - تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤ / ٠١٥

مكتب القاهرة - ت: ٠٢٢٤٠٣٨١٣٧ - فاكس : ٠٢٢٤٠١٧٠٥٣